مات الرافعي ولكنه سيعيش في قلب كل مسلم

بقلم: محمد سعيد العريان

لقد عاش الرافعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها، فما أدت له في حياته واجبا ولا اعترفت له بحق، ولا أقامت معه على رأي، وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة، فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها، على حين كانت تعيش في ضلال التقليد وأوهام التجديد . ورضي هو مقامه منها غريبا معتزلا عن الناس، لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من الكتب وينشر في الصحف، أو خلال ما يكتب عنه خصومه الأكثرون، وهو ماض على سنته سائر على نهجه، لا يبالي أن يكون منزله بين الناس في موضع الرضا أو موضع السخط والغضب، ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وما كان - رحمه الله - يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية، لا ينال منها نائل إلا انبرى له، ولا يتقحم عليها متقحم إلا وقف في وجهه، كأن ذلك «فرض عين» عليه وهو على المسلمين «فرض كفاية» .

لقد عرف الرافعي من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها بين أدباء الجيل، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر، فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وأن ينفخ في هذه اللغة روحا من روحه يردها إلى مكانها ويرد عنها، فلا يجترئ عليها مجترئ ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر، إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف عن دخيلته.

لقد عاش الرافعي حياته يجاهد لأمته ما لم يجاهد أديب في العربية منذ قرون، وقضى حياته يلقى من العقوق ونكران الجميل ما لم يلق أديب في العربية منذ كانت العربية، ومات فما كان حظه منا في أخراه أحسن منه في دنياه.

لقد حاول كثير من مؤرخي الأدب أن يتحدثوا عن الرافعي في حياته، فقالوا شاعر، وقالوا كاتب، وقالوا عالم، وقالوا مؤرخ، ولكنهم لم يقولوا الكلمة التي كان ينبغي أن تقال . لقد كان شاعرا، وكاتبا وأديبا، وعالما، ومؤرخا، ولكنه بكل أولئك، وبغير أولئك، كان شيئا غير الشاعر والكاتب والأديب، وغير العالم والمؤرخ، كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة في هذا الزمان، لينبهها إلى حقائق وجودها، وليردها إلى مقوماتها، وليشخص لها شخصيتها التي تعيش باسمها ولا تعيش فيها، والتي تعتز بها، ولا تعمل لها .

يرحمه الله! لقد عاش في خدمة العربية سبعا وثلاثين سنة من عمره القصير، وصل بها حاضرها الماثل بماضيها البعيد، فهي على حساب الزمن سبع وثلاثون ولكنها على الحقيقة عصر بتمامه من عصور الأدب، وفصل بعنوانه في مجد الإسلام!

لقد عاش غريبا ومات غريبا، فكأنما كان رجلا من التاريخ بعث في غير زمانه ليكون تاريخا حيا ينطق بالعبرة ويجمع تجاريب الأجيال، يذكر الأمة العربية الإسلامية بماضيها المجيد، ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلغ رسالته .

لقد خفت الصوت، ولكنه خلف صداه في أذن كل عربي وفي قلب كل مسلم، يدعو إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الإسلام .

لقد مات الرافعي،ولكن اسمه سيبقى ما بقيت العربية، وليس بعيدا ذلك اليوم الذي يتداعى فيه أدباء العربية من كافة أقطارها ليجعلوا ذكرى الرافعي موسما من مواسم الأدب وحلبة يتسابق فيها أهل البيان .